

تقليق نقد

عبد الفاسي

الأستاذ بجامعة القرويين وجامعة محمد الخامس

ان هذا البحث طريف وقيم تناول فيه الدكتور محمد سعيد قضايا اللحن ، والتصحيف والتوليد والتعريب في ضوء علم اللغة الحديث .

تحدث أولا عن معنى « اللحن » في الكلام العربي والتطور الذي حدث في استعماله وفي وسائل مقاومته ، فقد عرف اللحن أولا بمعنى الفطنة والدكاء وبالتظرف في الحديث ، حينما يخلط بالكلام الاجنبي او الكلام الذي يعتمد فيه الخطأ .

ثم اطلق اللحن على التورية وهو الذي عمل له ابن دريد كتابه الملاحن .

ثم استعمل اللحن في الخطأ في المعاني . وفيه اف الفاضل بن سلمه كتابه الفاخر « فيما تلحن فيه العامة » .

كل هذه الاطلاقات استعملت في معنى اللحن ، فصلها المؤلف واستدل لها ولكنه لم يذكر تاريخ التطور الذي تحدث عنه بالمعنى الدقيق للتاريخ . وعلى كل حال فالبحث يتناول بالذات اللحن بمعنى خروج الكلام الفصيح عن مجرى المتعة في بنية لكلام او تركيبه او اعرابه بفعل الاستعمال الذي يشيع أولا بين العامة ويتسرب بعد الى الخاصة .

ولا شك ان هذا اللحن امر طاريء على اللغة اذ المفروض في كلام العرب هو الصحة وما حاد عنه يعتبر خطأ .

ثم يتحدث المؤلف عن السمات التي يوصف من اجلها الكلام باللحن . ومنها الخطأ في الاعراب كنصب الفاعل ورفع المفعول . وكذلك وضع الكلمات في غير موضعها وخطا المعاني كقولهم خرجنا لتشره اذا خرجوا الى البساتين مع ان التشره هو التبعاد من المياه والارياض ، ومنها استعمال الطرب في الفرح فقط والحشمة في الاستحياء .

وقد اوضح المؤلف سر اعتبار هذا لحننا ، وزعم انهم لم يراعوا تطور الدلالة في الكلمة ، مع ان الكلمات ليست احجارا جامدة .

ثم حاول تفسير الخطأ في احوال بعض الحروف محل بعضها كقولهم دخل في غمار الناس ، مع ان العرب تقول دخل في خمار الناس - بالخاء لا بالغين - بالتطور الصوتي . وبعد ان حدد عشرة امثلة تتعلق ببنية الكلمة قال : ان الحكم عليها بالخطأ جاء في ضوء القواعد الصرفية ، ثم اشار الى نهاية العلماء بهذا النوع من الخطأ .

ثم ذكر امثلة مشرة ، لنماذج الخطأ في التركيب لأمراب كقولهم شكرت لك ونصحت لك ، والصواب شكرتك ونصحتك ، وبين ان الكثير منها يتعلق بتأليف التركيب العربي والامر الذي استقر عليه ، وهو من مباحث علم النحو . وقد أكد ان إيراد مثل هذه الاخطاء النحوية في دراسة (لحن العامة) إيراد لما حدث في اللغة الفصحى ، ويكون مقصورا على أوساط العلماء وان اطلقوا عليهم العامة ، بخلاف النماذج الاخرى فانها تمت مختلف الطبقات .

وقد اوضح صعوبة الوصول الى معرفة تاريخ بدء اللحن وتطوره في العصر الجاهلي ، وإن انتقد النحاة بعض العبارات الجاهلية لما يربطها للقواعد النحوية والصرفية الموضوعتين من بعد .

ولكن اللحن تردد عند العرب مع ظهور الاسلام على انه كان معروفا . وفي عهد الامويين اصبح اللحن ظاهرة خطيرة في استعمال اللغة ، وترتب عنها نشاط علمي متنوع . جاء بامثلة منه كالرحلة للبادية وتأليف الكسائي كتابه الذي لا يزال موجودا بين يدينا (ما لحن فيه العامة) . واستمرت موجة اللحن قوية مندفعة ، فالقرن الثالث اقل فصاحة من القرن الثاني واكثر لحنا . وفي القرن الرابع وصل اللحن الى مداه .

فماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

نظر العلماء الى هذه الظاهرة من جهة الخطأ ، فقاوموه بعنف ، وبدأت مقاومتهم منذ القرن الثاني ، وهنا جاء بقائمة لاسماء العلماء الذين كتبوا في تقويم اللحن ، تصل حد الثلاثين كتابا .

ثم لاحظ ان هذه المقاومة كانت في القرون الثلاثة الاولى قوية ثم ضعفت بعد .

وقد اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، دون ان يحاولوا استشهادات جديدة وسماحات من العرب غالبا .

وتصدوا غالبا بالعامة الناس العاديين بدليل قولهم الخواص او الخاصة . وجهودهم كلها تنصرف الى تنقية اللغة الفصحى .

لا وجود في هذه الكتب لحديث عن اللحن فكرة وموضوعا .

ثم يتساءل هل نجحت هذه الجهود التي قام بها أولئك العلماء ؟

وفي فصل خاص يحلل هذا الموضوع ارادة الجواب عن السؤال ، ويقول ان تحديد نظرية النحاة الى اللحن امر يسير ، لانهم نظروا اليه من زاوية الخطأ واعتبروه انحرافا ولم يأخذوا في الاعتبار قوة الاستعمال وقهره والتطور الذي يمكن تربيته على ذلك . مع ان لحن النحويين انفسهم في الاستعمال دلالة على خطورة الاستعمال . والخلاصة انه يؤكد في النهاية ان ما اطلق عليه النحاة منظور اليه من زاوية الخطأ ، وقبل ان يبين مدى نجاحهم فيما قصدوا اليه ، جاء بفصل في :

معنى التصحيف والتحريف وملاقتهما باختلاف المعنى والبنية والامراب ، وانتهى الى القول بأن مجال البحث في الكلمتين واحد ، وهو البحث عن الخطأ الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطأ الاملائي .

ولم تستعمل الكلمتان دائما في مكان واحد ، بل في معان لها صلة بالخطأ ، من جهة :

1 - من جهة التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحريف .

2 - سبب وقوع ذلك في الكتابة العربية خاصة .

3 - علاقة مظاهر الخطأ التي ترتبت على ذلك .

وقد فصل هذه الجهات الثلاث وارجع السبب في ذلك الى الخطأ العربي الذي لم يكن منقوطة ولا مشكولا . ثم ميزت حروفه بنقط وحركات منفصلة وتابعة للحروف العربية ، ويسال كذلك عن هذه

السؤال علماء اللغة الذين يعطون لانفسهم حرية رواية الكلمة كما فهموها من السياق .

فالمسؤول اذن الرسم العربي ، والنسخ ووهم العلماء .

وبعد ان اتى بنماذج تمثل الاسباب السابقة ، عقد فصلا لمقاومة التصحيف والتحريف بأسلوب الرواية وتنقية الاخطاء فذكر تطور ذلك على ما يأتي :

1 - ضبط الكتابة العربية بالنقط والشكل .

2 - ضرورة المشافهة في رواية اللغة .

3 - تنقية الاخطاء بجمعها في مؤلفات .

وقد جاء بانتقادات للعلماء على هذه الاساليب الثلاثة وعدم كفايتها لوقاية اللغة من التصحيف والتحريف .

ولاحظ ان هذا الجانب الذي هو تنقية اللغة بجمع ما صحف وحرف في مؤلفات جانب دراسي بدأ في القرن الرابع الهجري . كتب فيه المؤلفون الذين لم يكتفوا بنماذج التصحيف بل اضافوا الى ذلك تناول قضية التصحيف والتحريف من حيث نشأتها وعواملها .

ثم تساءل : اكان هذا المجهود حلا للقضية ؟

وقبل الجواب عن ذلك عقد فصلا :

لمعنى التوليد في الالفاظ ومصادره اللغوية .

1 - ثم جاء بعرض تاريخي للمولد من حيث استعمال اللفظ ودراسة العلماء لمظاهره .

2 - وبالتحديد النظري لمعنى التوليد كما رواه الاقدمون .

3 - وتحدث عن مصادر التوليد في الالفاظ ودراسة العلماء لنماذجه .

وبعد ان فصل هذه الموضوعات تساءل ايضا عن :

مدى توفيق العلماء في مباحث التوليد ؟

وقبل الجواب عنه ايضا انتقل الى بحث عن :

حركة التمريب وتطورها استعمالا ودراسة .

وطبعا فانه يعني بالتمريب معناه الاصيل الذي هو ادخال كلمة اعجمية في الكلام العربي وتبنيها ، لا بالمعنى الحديث الذي نستعمله حينما نطالب بتمريب التعليم والادارة مثلا .

وقد بين في هذه الفقرة :

1 - الصورة العلمية لحركة التمريب في الكلام العربي في عصر الاستشهاد

2 - الصورة العلمية لدراسة العرب في الكلام العربي بعد عصر الاستشهاد .

وقد اجاد في بحث الموضوعين وما تفرع عنهما كوجود الدخيل في القرآن ، وجاء بقائمة المؤلفات المهمة في موضوع التمريب .

ولاحظ ان التأليف في هذه الظاهرة تأخر نسبيا .

وضمنت فكرة التمهيد لذكر الكلمات العربية بمقدمة علمية تتناول الافكار الخاصة بهذه الظاهرة .

3 - كلمة الدخيل جمعت عنوانا لبعض الكتب في موضوع التمريب .

4 - من المؤلفات كتب في التصريب وضعت اخيرا الامر الذي يدل على انه لا يريد تناول التصريب في القديم فقط .

- اما الجانب اللغوي فقد عرض فيه نظرا لاقدمين للمعرب وجهودهم في اخضاعه لمسلك الصيغ العربية .

وقد فصل القول في هذا الجانب واسباب تدقيقات مهمة .

ثم تسأل ماذا يستنتج من موقف علمائنا الاقدمين ازاء النقل من اللغات الاجنبية ؟ يتلخص ذلك في امرين :

1 - قصر المعرب على العرب وحدهم الذين عاشوا في فترة زمنية خاصة .

2 - فرض قواعد الصيغ العربية على استعمال المعرب من لغات متعددة .

ولتقييم ذلك احال المؤلف على القسم الاخير الذي يجب فيه من الاسئلة المتقدمة . وفي هذا القسم تناول رأي علم اللغة الحديث من :

1 - اللحن بين تحكم القواعد وتطور الاستعمال

2 - التصحيف والتحريف من مظاهر الرسم العربي .

3 - الالفاظ المولدة في ضوء تطور اللغة .

4 - التعريب بين قيود النحاة وحاجة الاستعمال .

وقد فصل آراء العلماء اللغويين المعاصرين في هذه النقاط وبين ميزة التسامح التي ظهروا بها ازاء المسئلة الاولى ، وادلى بآراء اللسنيين عرب واهاجم ودعا الى :

1 - تنحية الفكرة القديمة عن المجموعة المدونة فيما لحن فيه العوام واعتبارها تطورا يهدينا الى دراستها في مراحل استعمالها

2 - النظر في هذه المادة ودراستها مع غيرها من النصوص الموثقة في عصرها ليعلم مدى انتشارها في الاستعمال فيقبل منها ما تحقق له ذلك . وتناول بعد ذلك امر التصحيف والتحريف وابدى اعجابه بجهود العلماء فيها وقال : ان العلماء بعد ان عرفوا الضعف الموجود في الرسم العربي لم يحاولوا تغييره ، وقال ان الرسم العربي شأن غيره في اللغات الاخرى قد يشتمل على عيوب ، وهذه العيوب ينبغي احتمالها والرضا عنها اتركابا لاختف الفيررين ، واستدل على ذلك بنص للعالم اللسني فندريس .

اما من المولد فقد اعتبر ان الالفاظ المولدة مظهر لتطور اللغة .

وان موقف النحاة من هذه الالفاظ قد تحكمت فيه اعتبارات اعترفوا بها ثم استسلموا لها ، وينتقد عليهم خروجهم من واجب الاستقرار الى الحكم بالاباحة او المنع على الالفاظ واعتبر ان الحق المطلق لبعض الناس في ظروف معينة ينبغي ان يعم على كل جماعة وكل عصر فيقبل ما ولدوه من كلمات دعت اليها حاجة اللغة وهدت اليها سليقتها .

ثم انتهى باستخلاص نظرة المحدثين للعوامل الطارئة على اللغة .

1 - اعتبار التطور في اللغة من اساس النظرية الحديثة للمستوى اللغوي ، وتفسير هذا التطور حسب رأي - فيرس - التغيير المستمر بين عناصر اللغة .

2 - لا تتطابق الكتابة لاية لغة مع نطق هذه اللغة فنحن ، كما يقول فندريس ، لا نكتب كما نتكلم بل نكتب كما يكتب غيرنا .

3 - أن تغير الظروف الاجتماعية ينمكس تأثيره على الالفاظ من حيث اختفاء بعضها واندثاره وحدوث الاضر واستعماله .

4 - تقل الالفاظ من اللغات الاجنبية بخضع للحاجات الاجتماعية المتجددة للناطقين انفسهم ، وهذا امر عادي لا خطر فيه .

اعتبر ان هذا الكتاب يكون بحثا قيما خاضعا لمنهج البحث اللغوي الحديثة متسلسلا في افكاره وموضوعاته وفي الاستنتاجات المترتبة عليها ، وانه استقرا باختصار مباحث الاقدمين عن العوامل الطارئة على اللغة بكيفية لم يسبق جمعها في كتاب حديث ، ثم اعاد تقييمها على ضوء آراء علماء اللسانيات ، ومباحث العرب التي شغلت اوقات الجامع العربية ازيد من نصف قرن ، ولم يتقدم المؤلف باقتراحات ثلثائية في تجديد اللغة خارجة عما ورد على السنة الباحثين المجمعين في الشرق العربي . ويظهر ان المؤلف لم يطلع على بعض البحوث التي قام بها المغاربة المختصون لاسيما في اصلاح الرسم العربي الذي وضعه الاستاذ الاخضر والذي يسعدني ان اقول مرة اخرى انه يصلح من ميوب الرسم العربي الشيء الكثير ، كما انه فيما يظهر لم يطلع على جهود مكتب التمرير المغربي ومحاولته لاحصاء كلمات الحضارة واستقرائها والاكتفاء بما هو موجود منها في كتب اللغة او في المجتمعات العربية من اتخاذ الدخيل الذي ينزع اليه عند عدم وجود الاصيل .

والكتاب بهذه الصفة جيد وجدير لقبوله من اللجنة المحترمة واجازته ، وبالمقارنة مع الباحث الاخرى وآراء المقررين فيها يقع التفاضل وينسب الترجيح ، وان كنت اوصي بكل اخلاص بمجازاة هذا المؤلف على جهده المشرف وطبع رسالته .

